وتروع ليلك، والتي كانت تمتلئ بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبيل فإذا هم يضمرون له الهول كل الهول، ويسرون له البغض كل البغض، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرمًا إلى لحمه وعظمه، وحتى تضطرم في أجوافهم غلَّة لا يرويها إلا دمه، وهو يبلغهم خائفًا وجلًا قد ملأ الجزع قلبه وفرَّق الهلع نفسه، فإن كان قد حفظ الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابتدره بالسلام فقلم أظفاره واضطره إلى السلم والموادعة، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هيأ نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقامًا والتهمه التهامًا، وقطع الوسائل بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يمضي للقائهم أمامه …؟

ماذا أعددت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منبثون في الطريق؟ ليسوا سبعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون، بل أكثر من سبعين، بل مائة، بل مئات قد انتثروا في الطريق، منهم من جلس ينتظر الفريسة، ومنهم من مضى يبتغيها، منهم من برز ضاحيًا ومنهم من استخفى في الحقول واختبأ في المزارع، منهم من يظهر مظهر الغول كريهًا مخيفًا لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقًا وحتى تندفع الغريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والخلاص منه، ومنهم من يظهر مظهر الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب، وتأنس إليه النفس بعد وحشتها، ثم لا يجد منه اللاجئ إليه إلا غدرًا ولا يظفر عنده الواثق به إلا بالشر والنكر والبوار. منهم من اتخذ زي الرجل، ومنهم من اتخذ زي المرأة، وكلهم غول قد هيأته الأحداث لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي نبذتهن الأسرة أو اجتثتهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها، والحياة تلعب بهن، تقذفهن من مكان إلى مكان، وتنقلهن من شر إلى شر، حتى ينتهي بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى الغول المتنكر، فإذا هن فريسة لهذا أو لذاك، يلقين العار والخزي، ويلقين البؤس والضيم، ويلقين المرض والشقاء، ويلقين الألم دائمًا، وقد يلقين الموت أحيانًا …؟!

لم تفكر آمنة في شيء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت أسرتها كما ينطلق السهم، ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهدًا ولا مشقة، بل لا تحس حركة ولا نشاطًا، بل لا تشعر بأنها تمضي كما يمضي السهم لأنها لم تكن تفكر إلا في سجن قد أفلتت منه وهي تريد أن تبعد عنه، وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تنغمس فيها انغماسًا.

فهي تمضي وتمضي لا تقف ولا تلتفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الجدات والأمهات، قد مضى لغايته